التعليم في الجزائر بين المناهج الدينية العثمانية والمناهج التبشيرية الاستعمارية

Education in Algeria between the Ottoman religious curricula and the colonial missionary curriculum

د. سعداوي ليلى

جامعة حسيبة بن بوعلي– الشلف– lilasaadaoui7@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/10/ 26 **تاريخ القبول:** 2021/11/ 08 **تاريخ النشر:** 2022/01/ 10

ملخص:

عرف التعليم أواخر العهد العثماني مجموعة من التحولات التي أثرت عليه نتيجة ارتباطه بالوضع السياسي للبلاد، حيث تراجع ونقص عدد المعلمين، وحتى المناهج التعليمية المتبعة لا تحقق الغرض المنشود، نظرا لبساطتها في ظل الجمود الفكري الذي يطغى على الجزائر بصفة عامة، في حين أن الغرب شهد ثورة علمية وصناعية منقطعة النظير انتهت بحركة استعمارية كان للجزائر نصيب منها سنة 1830، والتي انتهت بإمضاء معاهدة الاستسلام وبتعهد فرنسا باحترام الممارسات الدينية للسكان.

ولكن الواقع كان غير ذلك، حيث عمدت الإدارة الفرنسية منذ البداية إلى القضاء على المساجد، وتحويل البعض منها إلى كنائس، بالإضافة إلى تهديم المدارس ومنع الأهالي من التعليم واستبدال اللغة العربية باللغة الفرنسية، والقيام بنشر تعليمها التبشيري عن طريق الجمعيات والمراكز والمدارس.

الكلمات الدالة: الجزائر، التعليم الديني، السلطات الفرنسية، التعليم التبشيري، المناهج التعليمية.

Abstract:

Education at the end of the Ottoman era witnessed a series of transformations that affected it as a result of its association with the political situation of the country, as the number of teachers decreased and the number of teachers decreased, and even the educational curricula followed did so. It did not achieve the desired goal, for its simplicity in light of the intellectual stagnation that prevails in Algeria in general, while the West witnessed an unparalleled scientific and industrial revolution that ended with a colonial movement that Algeria had its share of in

1830, which ended with a colonial movement. The signing of the surrender treaty and France's pledge to respect the religious practices of the population.
But the reality was otherwise, as the French administration from the beginning eradicated mosques and converted some of them into churches in addition to destroying schools, preventing people from teaching, replacing the Arabic language with the French language, and spreading its missionary education through associations, centers and schools.
Keywords: Algeria; religious education; French authorities; missionary education; educational curricula.

1. مقدمة:

اعتمد التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني على العديد من المؤسسات كالكتاتيب والزوايا، والمدارس، والمساجد ليكون بذلك تعليما ذاتيا وتقليديا يقوم على المؤسسات الخيرية والأوقاف ولا علاقة للدولة بدعمه، الأمر الذي تسبب في بقائه تعليما بسيطا تطغى عليه العلوم الدينية وبعض العلوم الأخرى المتعلقة بمبادئ الحساب التي لم تعد تفي بالغرض أواخر العهد المذكور. وتجدر الإشارة إلى أن المناهج التعليمية العثمانية ارتبطت في تحولاتها بالوضع السياسي والاقتصادي للبلاد، حيث قلت المدارس وانحصر التعليم في العديد من المناطق نتيجة تراجع عائدات الأوقاف.

وترتبط إشكالية البحث بقضية جوهرية مفادها أن التقدم لا يمكن أن يكون دون الاهتمام بالعلم، وأن احتلال منطقة لأخرى ليكون علميا قبل أن يكون عسكريا واقتصاديا، وهذا ما دأبت الإدارة الفرنسية على تطبيقه منذ الفترة الأولى للاحتلال، حيث قادت حركة استعمارية تبشيرية تحاول من خلالها فرض لغتها ونفي لغة السكان المحليين، واستئصالهم من مقوماتهم الرئيسية والقضاء على هويتهم الوطنية بشتى الطرق.

وعليه نصبو من خلال هذه الدراسة إلى محاولة إبراز الفروق التعليمية بين الفترة العثمانية، من خلال السعي إلى البحث عن المناهج الدينية والتطرق إلى حالة العلم والعلماء، وبين الفترة الاستعمارية من خلال البحث في خبايا الفكر الاستعماري المغاير تماما للفكر الإسلامي والهادف إلى تجهيل الجزائريين وتنصيرهم من خلال إتباع سياسة تعليمية قائمة على المناهج التبشيرية المغيرة للمعالم الحضارية الجزائرية.

ومن خلال ما تم ذكره في هذه الورقة البحثية يمكننا طرح الإشكال التالي: كيف كان التعليم بين الحقبتين التاريخيتين؟. ولتفكيكها طرحنا بعض الأسئلة: هل كان التعليم خلال الفترة العثمانية نهضويا أم بسيطا؟، وهل

كانت المناهج الاستعمارية المطبقة لهدف معين؟، وما نوعية التعليم المقدم لهم؟، وما هي الأبعاد الاستعمارية؟، وما هي خلفياتها؟.

2. المؤسسات الثقافية خلال الفترة العثمانية:

اعتمد التعليم خلال الفترة العثمانية على العديد من المؤسسات الثقافية التي انتشرت في كل المناطق الجزائرية تقريبا، فلا نكاد نجد قرية أو مدينة تخلو منها، وهذا ما تشهد عليه المصادر التاريخية الفرنسية التي أجمعت على انتشار المؤسسات الدينية والتعليم بين الجزائريين فالكل يعرف القراءة والكتابة، ولذلك سنحاول في هذا العنصر دراسة دور المؤسسات التعليمية من كتاتيب ومساجد وزوايا ومدارس.

1.2 الكتاتيب:

الكتاب عبارة عن مكان يكون أحيانا قرب المسجد وأحيانا أخرى بعيدة عنه، وقد بني خصيصا للتعليم الابتدائي [1]، مساهما بذلك في تحقيق الهدوء للمساجد بعيدا عن ضجيج الأطفال باعتباره المهد الرئيسي للمراحل التعليمية القادمة، ولقد كان التعليم فيه بسيطا يقتصر على الكتابة والقراءة وحفظ القرآن، وتعليم بعض مبادئ الحساب باستخدام وسائل بسيطة كاللوحة مثلا. وقد انتشرت الكتاتيب في المدن والقرى وكان يشرف عليها المؤدب الذي ساهم بفضل تدريسه في تكوين صورة ثقافية عن المجتمع الإسلامي [2].

2.2 المساجد:

تعتبر المساجد المكان الرئيسي للقيام بالعبادات، وهو من أقدم المؤسسات الثقافية والدينية، وقد تداخلت المساجد مع الجوامع في الوظيفة التعليمية. وتجدر الإشارة إلى أن بناء المساجد كان عملا فرديا ولا علاقة له بمجهودات الدولة، حيث كان البشاوات والأغنياء يشيدونه من مالهم الخاص [3]، ولقد انتشرت في كل الجزائر تقريبا والتي نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر الجامع الكبير الذي بناه مصطفى باشا في بجاية والمسجد الأعظم بمعسكر الذي شيده الباي محمد الكبير والذي سمي بمسجد العين البيضاء [4]، بالإضافة إلى مسجد الباشا حسان داي ومسجد الباي محمد الكبير الذي سمي بمدرسة خنق النطاح، والذي كان بمثابة مدرسة ورباط، ولقد تميز هذا المسجد عن غيره بكونه مكانا ثقافيا يقوم على تعليم الطلبة، ومكانا عسكريا يراقب تحركات الإسبان العسكرية في مدينة وهران ليكون القاعدة الإسلامية المهدة لفتح [5].

وبالحديث عن دور المسجد فإنه "**ملتقى العباد مجمع الأعيان ومنشط الحياة الاجتماعية، وهو الرابطة بين أهل القرية والمدينة**" [6]، ولقد كانت بعض المساجد تمارس التعليم بمراحله الابتدائية والثانوية والعليا ولقد كان لكل مسجد أوقاف خاصة به وهي المسؤولة عن دفع الرواتب وأجور المعلمين والطلبة.

3.2 الزوايا والرباطات

تميزت الزوايا عن غيرها بالانعزال وبعدها عن المدينة، وعرفت انتشارا واسعا في الأرياف فهي المكان الرئيسي المخصص للقراءة والكتابة في تلك الأماكن، وما تختلف فيه عن غيرها من المراكز التعليمية هي تسميتها التي غالبا ما تنسب لولي معين أو طريقة صوفية معينة، كما أنها انفردت عن غيرها بكونها ملجئ لعابري السبيل فهي المركز الرئيسي للفقراء واليتامى ، والمكان الجامع لكل طوائف المجتمع باعتبارها مكان للعبادة وتدريس العلوم الدينية والفقهية وتعليم القراءة والكتابة في المناطق الريفية النائية من خلال أموال الأوقاف أو الزكاة [7].

ولقد انتشرت الزوايا في معظم المدن والأرياف ففي مدينة الجزائر مثلا نجد زاوية عبد الرحمن الثعالبي وزاوية عبد القادر الجيلاني، وسيدي الجودي، وفي قسنطينة نجد على سبيل المثال زاوية سيدي الميمون، وسيدي الكتاني، وسيدي راشد، كما اشتهرت أيضا مدينة تلمسان بالعديد منها كزاوية سيدي الذيب، سيدي بومدين، زاوية عين الحوت، لتبقى زواوة وبجاية من أغنى المناطق بالزوايا التي اشتهرت بنشر التعليم وبحفظ القرآن واستقبال الفقراء [8].

ولقد تداخلت الرباطات مع الزوايا في المهمة التعليمة ولكنها اختلفت معها من الناحية الدينية باعتبارها الأكثر تفتحا اتجاه كل التعاليم الصوفية والعسكرية لأنها مكان مخصص للدفاع والجهاد عن الإسلام وتواجدت الرباطات عامة في الحدود لرد الخطر [9].

4.2 المدارس

اشتهرت الجزائر بالمدارس قبل العهد العثماني ولكنها انتشرت بكثرة خلال العهد المذكور في المدينة والريف على حد سواء، وهذا ما جعل كل السكان يعرفون القراءة والكتابة، ولقد اشتهرت مدينة تلمسان عن غيرها بكثرة المدارس وتنوعها التي نذكر من بينها المدرسة اليعقوبية [10]، ومدرسة الجامع الكبير ومدرسة أولاد الإمام ، واشتهرت مدينة قسنطينة عامة بالعديد من المدارس ذات التعليم الثانوي والعالي حيث وجد الفرنسيون بها حوالي سبع مدارس، ونفس الشئ بالنسبة لمدينة الجزائر التي تواجدت بها المدرسة القشاشية ومدرسة الجامع الكبير ذات التعليم الثانوي والعالي [11]. وبالرغم من ذلك لم تحتوي الجزائر على مؤسسات ذات التعليم العالي جدا كجامع

الأزهر بمصر، أو الزيتونة بتونس، أو القرويين بالمغرب، إلا أن الدروس المقدمة كانت تضاهي دروس الأزهر والزيتونة والقرويين.

وعلى الرغم من اتفاق العديد من المصادر على خلو الجزائر من المدارس العليا إلا أن أحمد بن شوش يشير إلى وجود مدرسة في معسكر تتميز بتعليمها العالي والتي سميت بمدرسة معسكر واشتهرت بتدريس العلوم الدينية وبتخريج الإطارات كالقضاة والمفتيين والمدرسين [12]، ولكنها تراجعت أواخر العهد العثماني بسبب عدم استقرار الأوضاع السياسية والعسكرية والاقتصادية الأمر الذي تسبب في هجرة علماء المنطقة وعامة الناس بسبب انتشار الفوضى، والفتن، وانتشار الكوارث الطبيعية كالزلازل والجراد وانتشار الأمراض والأوبئة [13].

3. ميزانية التعليم:

اعتمد التعليم خلال الفترة العثمانية على الأوقاف أو الحبوس التي لعبت دورا بارزا في دعم الحياة الثقافية، فهي الممول الأول للمسجد والزاوية والكتاب والمدارس من خلال العناية بالطلاب والفقراء والعلماء، ليكون بذلك مصدر الحياة الاجتماعية والثقافية فمن الصعب أن تخلو منطقة ما من أملاك وضعت للوقف، ولقد انتشرت الأوقاف بكثرة في المدن فالبعض منهم كانوا يضعون أراضيهم حقولهم وقفا تفاديا لمصادرتها من طرف السلطة الحاكمة، والبعض الآخر كانوا من أصحاب الثروة فيضعونها عملا خيريا لهم [14].

ولقد تنوعت المؤسسات الوقفية خلال الفترة العثمانية كأوقاف الحرمين الشريفين، أوقاف الأشراف والمرابطين وأوقاف أهل الأندلس التي كانت عائداتها توجه لدفع مرتبات المعلمين، وبعض الطلبة الفقراء وتغطية مصاريف الدراسة في التخصصات الدينية، بالإضافة إلى شراء المواد الضرورية للمؤسسات التعليمية من أفرشة وأغطية وزرابي [15].

ومن بين الواقفين في الجزائر نذكر على سبيل المثال الباشا الحاج حسين ميزمورطو الذي أسس جامعا وأوقف عليه أراضي ودكاكين وأسواق، والسيدة مريم ابن نكيروا الأندلسية التي أوقفت على جامع السيدة مريم ثلاثة منازل وأربعة عشر دكانا، لتشكل الأوقاف نوع من التضامن الاجتماعي وخدمة التعليم بكل أنواعه من ابتدائي تتولاه المدارس القرآنية إلى ثانوي تتولاه المساجد والزوايا التي وفرت مجانية السكن للطلبة، إلى التعليم العالي الذي كان موجود ولكنه لا يضاهي في جودته التعليم في مصر أو تونس أو المغرب [16].

4. السياسة التعليمية العثمانية:

من خلال المعلومات السابقة الذكر يتضح لنا جليا عدم تدخل الدولة في مسألة التعليم، فلم يكن للجزائر وزيرا خاصا بالشؤون التعليمية التي كانت يقف تمويلها على الأوقاف، ونفسر غياب الدولة في هذا الميدان إلى اهتمامها بالجوانب السياسية كإخماد التمردات والثورات والانتفاضات التي اندلعت أواخر العهد العثماني، بالإضافة إلى الدفاع عن الحدود وإلى الاهتمام بالجوانب الاقتصادية من خلال البحث عن المداخيل وجمع الضرائب، أو الاهتمام بالجانب الثقافي والتعليمي لأن الوازع وراء تسخير الأوقاف للعلم لم يكن خيريا فقط وإنما من أجل التباهي والشهرة والمدح.

ولذلك نجد أن طرق التدريس كانت بسيطة تعتمد على تعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الذي انتشر في الكتاتيب، وتعليم مبادئ الحساب وبعض العلوم الدينية والفقهية التي انتشرت في المساجد والزوايا والمدارس التي كانت بمثابة التعليم الثانوي والعالي حيث تميزت الدروس بالشرح والتحليل والتفسير وشملت حتى القواعد والفلسفة والتاريخ.

ولكن هذه العلوم شهدت تراجعا كبيرا أواخر العهد العثماني نتيجة اهتمام الدولة بالأمور المالية والتجارية، وحتى التعليم أصبح من المهن الصعبة والغير مرغوب فيها نتيجة تناقص عدد المعلمين الذي سعوا إلى البحث عن مورد رزق آخر يضمن له كرامة العيش الكريم، لأن المهنة أواخر العهد المذكور لم تعد تجلب لصاحبها سوى الفقر نتيجة تراجع مداخيل الأوقاف [17].

5. التعليم في الجزائر خلال الفترة الاستعمارية:

عرفت الجزائر منذ خضوعها للاستعمار الفرنسي سنة 1830 تغيرات جذرية في شتى المجالات، حيث قامت السلطات الفرنسية بممارسات تعسفية طالت حتى الوضع الثقافي، من خلال إتباع سياسة كولونيالية تهدف إلى ضرب الحركة التعليمية الموروثة عن العهد العثماني وإحلال سياسة التجهيل بالرغم من التعهد الذي أمضاه دي بورمون (De Bourmont) مع الداي حسين في معاهدة الاستسلام التي تعهد فيها باحترام الديانة الإسلامية وعدم المساس بالشعائر الدينية.

1.5 موقف الإدارة الفرنسية من المؤسسات التعليمية الجزائرية

عقب الاحتلال الفرنسي وبمجرد نجاح الحملة أصدرت السلطات الاستعمارية قرارا ينص على سلب جميع أملاك الأوقاف، لأنها أدركت أن نجاح الاستعمار مرهون بالقضاء على النظام التعليمي ومحاربة المؤسسات الدينية وإتباع سياسة الفرنسة والتبشير والتنصير، من خلال تغيير المناهج والأساليب الهادفة إلى بث الروح

التبشيرية، ولذلك حث دي بورمون (De Bourmont) القساوسة المرافقين له خلال الحملة بضرورة نشر المسيحية في إفريقيا قولا والقيام بتنصيب الصليب أعلى البناية في القصبة فعلا [18].

ولم تكتفي الإدارة الفرنسية بذلك بل قامت بتحويل العديد من المساجد إلى كنائس كمسجد كتشاوة الذي حول إلى كاتدرائية، وتهديم الأخرى منها بالإضافة إلى تهجير العلماء وأئمة المساجد والزوايا، فتضرر بذلك التعليم في المستوطنة نتيجة السياسة الاحتلالية القائمة على غلق المدارس والزوايا والمساجد والكتاتيب ومحاربة التعليم، وبهذا سيطرت فرنسا على المؤسسات التعليمية ليكون الاحتلال عسكري ومن ثم ديني وفكري يقضي على كل الأبعاد الإسلامية.

2.5 السياسة التبشيرية الفرنسية

يعتبر الأسقف ديبيش (1838-1845) أول من أسس القواعد التبشيرية الأولى في الجزائر، حيث أسس في فترته 60 كنيسة [19]، ليأتي بعده الأسقف بافي (1846-1866) الذي استغل فقر الجزائريين وعوزهم حيث أمر بتقديم التبرعات للأهالي الذين يأتون لسماع التلاوة الدينية [20].

ولقد تزامنت فترة الأسقف بافي مع صدور قانون السيناتوس كونسولت في 22 أفريل 1863 [21]، الذي اعتبر المنعرج الرئيسي في تاريخ التشريع العقاري الاستعماري نظرا للنتائج المترتبة عنه، حيث قضى القانون على البنية الاقتصادية والاجتماعية وسهل من مصادرة الأراضي، الأمر الذي نتج عنه انتشار الفقر والعوز والحاجة نتيجة نقل ملكية الأراضي للمستوطنين وسهل المهمة التبشيرية من خلال استغلال الأوضاع المزرية للجزائريين .

وبحلول سنة 1867 ظهر الكاردينال لافيجري الذي واصل المهمة لغاية 1892، ولقد شهدت فترته ظروفا طبيعية واجتماعية مزرية، حيث حلت المجاعة وضرب الجفاف [22] وانتشرت الكوليرا التي قضت على أغلب الجزائريين، فرغيف الخبز غير موجود والدواء يكاد ينعدم والكاردينال يحمل بيده رغيف وبيده الأخرى صليب وحركة تبشيرية وحماس منقطع النظير للوصول إلى أهدافه في ظل النفوذ السياسي الذي يتمتع به والمساعدات المالية الكبيرة التي يحظى بها.

وتجدر الإشارة إلى أن الكاردينال باشر العمل التبشيري بمجرد وصوله إلى الجزائر، حيث استهل مهمته بجمع عدد كبير من اليتامى في نواحي العطاف والذين قدر عددهم بحوالي 1753 طفل للقيام بتربيتهم تربية مسيحية [23]، لتجمع المصادر التاريخية على أن فترة الكاردينال شهدت ذروة التبشير المسيحي.

ومن هنا نستنتج الأهداف الخفية للسياسة الفرنسية القائمة على نشر الثقافة الفرنسية والعمل على التنصير والإدماج والقضاء على مقومات الأمة الجزائرية المتمثلة في الدين واللغة والتاريخ.

وحتى تتمكن الإدارة الفرنسية من ذلك سنت العديد من القوانين والمراسيم المنظمة للتعليم الفرنسي والمعدلة للبرامج التعليمية العربية، كالقرار الذي أصدره الحاكم شانزي (Chanzy) والذي ينص على منح الرخص للمدارس القرآنية بشروط أن لا يكون المؤدب أجنبي على المنطقة، وأن لا تفتح مدرسة عربية إذا ما وجدت في المنطقة مدرسة فرنسية عربية [24]، وبهذا يكون القرار قد وضع لتحقيق الأهداف الاستعمارية والتضييق على التعليم بين الجزائريين وضمان قيادتهم وتغيير أفكارهم.

ولقد اعتمدت فرنسا في سياستها التعليمية على العديد من الجمعيات والمدارس والمراكز التي تحمل بين طياتها أهداف السياسة الاستعمارية القائمة على الفرنسة والإدماج والتنصير، ومن بين تلك الجمعيات نذكر جمعية الآباء اليسوعيين التي اعتبرت نواة التعليم التبشيري [25] خلال الفترة الأولى من الاحتلال حيث سعت إلى بعث الروح التبشيرية في الجزائر عن طريق التنصير الجماعي [26] مستخدمتا في ذلك العديد من المدارس التي قامت بتأسيسها في منطقة القبائل [27]، كمحاولة فرنسية لاستمالة البربر على اعتقادها أنهم غير مسلمين تماما [28] وبذلك ارتفع عدد المدارس التبشيرية في منطقة القبائل التي نذكر منها مدرسة جمعة الصهاريج ومدرسة بني يني، كما تأسست مدرسة أخرى في عهد الكاردينال لافيجري سميت بجمعية السيدة الإفريقية (الآباء البيض) سنة 1867 [29] التي اعتبرت من أهم الجمعيات عملا ونشاطا.

ونظير أعمالها قامت بتأسيس العديد من المراكز والمدارس كمركز بونوح الذي أنشأ سنة 1872، ومركز ثاغمورنت عزوز بن عيسى الذي أنشئ سنة 1873، ومركز توريت عبد الله في أيت واضو سنة 1873، ومركز خراطة في بني عباس سنة 1879، ومدرسة إبركانن الذي تأسس سنة 1873 وجمعية الصهاريج التي تم إنشاؤها في سنة 1883 [30]، ومدرسة أيت الأربعاء في سنة 1883 وأغيل علي سنة 1877 بالإضافة إلى مدرسة واضية التي تأسست في نفس السنة [31].

وتهدف الإدارة الاستعمارية من خلال تلك الجمعيات إلى القضاء على اللغة العربية ومحاربة الدين الإسلامي وتنويع الأساليب التبشيرية وتدعيم ثقافتها، من خلال إتباع استراتيجية دقيقة تزامنت مع البؤس الاجتماعي والاقتصادي للجزائريين، فمجاعة سنة 1866-1867 شكلت عنصرا حيويا للتبشير في عهد الكاردينال لافيجري الذي بلغ فيه التنصير أوج ذروته [32]، والتشجيع على التنصير من خلال الاستعانة بالبرامج التعليمية التي أخذت الصبغة المسيحية [33].

6. البرامج التعليمية الفرنسية:

1.6 التعليم المهني (الحرفي)

سعت الإدارة الفرنسية من خلال التعليم المهني أو التكوين المهني إلى جعل الجزائري في خدمة الاحتلال، لأن الهدف يكمن في تعليمه وإدماجه في الحياة العلمية الاستعمارية، ومن بين المدارس المهنية نجد عين الحمام بزوارة التي كانت تحت إشراف جمعية الآباء والأخوات البيض، ويرتبط هذا التعليم ارتباطا وثيقا بممارسة الأعمال الزراعية والفلاحية، وقد نص مرسوم 18 أكتوبر 1892 على إنشاء مناصب مختلفة تخص الفلاحة والتكوين الفني والصناعي [34].

2.6 التعليم العام

ويقصد به التعليم الابتدائي والثانوي والعالي، ويعود افتتاح أول مدرسة تبشيرية فرنسية في الجزائر إلى سنة 1831 [35]، ولقد انتشرت أغلب المناطق كما سبق القول في منطقة القبائل، وشمل التعليم القراءة والكتابة باللغة الفرنسية ومختلف العلوم النظرية، ولقد كانت المدارس في الغالب بسيطة وعادية ولم تتأسس الابتدائيات ذات التعليم العالي إلا في سنة 1885 ، وذلك في إطار تغيير نمط المؤسسات التعليمية الذي يجمع بين تدريس الذكور والإناث، وتجدر الإشارة إلى أن أول مدرسة للإناث تأسست بموجب المرسوم الصادر بتاريخ 14 جويلية و 6 أوت 1850 [36]، ولكنها لم تحقق الغرض المطلوب لسببين فالأول هو رفض الأهالي تعليم بناتهم خوفا من الصبغة التبشيرية التي يتميز بها التعليم كما أن أغلب المناهج تدرس باللغة الفرنسية [37]، والسبب الثاني يتعلق بالجانب المالي لأن الميزانية لم تكن كافية للتعليم [38]، ونتيجة لذلك تراجعت المدارس الخاصة بالإناث.

أما التعليم الثانوي والعالي فقد كان خاص بالمستوطنون الفرنسيون والأجانب، ولقد ضم التعليم العالي العديد من التخصصات كالطب الذي تطور بعد تأسيس المدارس العليا سنة 1879، حيث أضيفت لها الصيدلة وأعيد تنظيمها، كما تأسست في نفس السنة المدرسة العليا للآداب، والمدرسة العليا للحقوق، والمدرسة العليا للعلوم، وفي سبيل تطوير البحث ألحقت السلطات الفرنسية بالمدرسة العليا للعلوم مرصد ومخبر للمحطة الزيولوجية البحرية، لتؤسس بعد ذلك معهد باستور الذي كان تابع للحكومة بصفة مباشرة، وتجدر الإشارة إلى أن التعليم الثانوي والعالي كان يخص الفرنسيين بالدرجة الأولى، فقد جاء في إحصاء لسنة 1882 أن عدد الطلبة الجزائريين لم يتجاوز 35 طالب وغالبيتهم في ميدان الحقوق، وللحصول على الشهادة يتوجب عليهم التوجه نحو فرنسا [39].

ولقد جعلت فرنسا التعليم العالي في خدمتها من خلال إنشاء المعاهد المتخصصة كمعهد البحوث الصحراوية الذي كان ينشر الدراسات المعمقة ومعهد الدراسات الشرقية الذي اهتم بالدراسات الإسلامية والعربية ومعهد الجيولوجية التطبيقية، وجمعيتي العلوم الفيزيائية والكيميائية [40].

وفي سياق الحديث عن التعليم المهني والعام توصلنا إلى قلة عدد الجزائريين المتعلمين، ومن تعلم منهم تعلمه بلغة مغايرة للغتهم ليظهر بذلك الواقع التعليمي للجزائريين والنوايا الخفية للسياسة التعليمية الفرنسية التي حاربته، وأغلقت المدارس الجزائرية وتصدت لكل ما له علاقة بالثقافة الإسلامية في محاولة منها لهدم المقومات الشخصية الجزائرية، وفرض ثقافة جديدة تهدف من خلالها إلى إدماج وفرنسة وتنصير الجزائريين.

7. مصادر تمويل التعليم التبشيري خلال الفترة الأولى من الاحتلال:

تنوعت مصادر التعليم التبشيري خلال الفترة الأولى من الاحتلال من مساعدات رسمية وتبرعات شخصية وجمعيات، ولقد كانت المساعدات الرسمية تقدم من طرف الدولة بهدف نشر التعليم الفرنسي، وتوحيد المناهج التعليمية، وإضعاف المدارس الجزائرية من خلال القضاء على المدارس والزوايا والكتاتيب والمساجد التي كانت منتشرة في كل التراب الجزائري، لدمج الأهالي خاصة في عهد الكاردينال لافيجري التي كانت فيه المساعدات المالية الرسمية كمايلي:

الجدول 1: المساعدات المالية الرسمية

السنوات	المبلغ بالفرنك
1870	9000
1871	37000
1872	53550
1873	59535
1874	53545
1875	53700

المصدر: محمد الطاهر وعلي، المرجع السابق، 2013، ص 149.

وتجدر الإشارة إلى أن التبرعات المرتبطة بالشخصيات أو الجمعيات كانت أكبر من المساعدات الرسمية أحيانا، فجول كامبون قدم للكاردينال 60 ألف فرنك لتمويل المشروع التنصيري، أما الجمعية الوطنية لنشر اللغة الفرنسية في المستعمرات والخارج التي كان لافيجري رئيسها الشرفي كانت تقدم ما قيمته 70 ألف فرنك سنويا للمستعمرات والجمعيات التبشيرية [41].

8. مقارنة بين السياسة التعليمية العثمانية والسياسة التعليمية الفرنسية

مرحلتين تاريخيتين مختلفتين بسياستها التعليمية ومناهجها التربوية فالمفارقات كبيرة والنتائج أكبر من ذلك، لأن الدولة العثمانية جعلت من التعليم عبادة، وربطته بالدين الذي جعلته مصدرا للثقافة الإسلامية بالرغم من عدم تطوره واعتماده على مناهج تعليمية بسيطة تتعلق بالقراءة، والكتابة، وحفظ القرآن، وبعض مبادئ الحساب التي كانت تدرس في المساجد والمدارس والزوايا والكتاتيب ويشرف عليها المؤدب أو المعلم، الذي كان يستمد راتبه من عائدات الأوقاف.

ويعتبر الوقف أحد الأنظمة الرئيسية في تاريخ الجزائر العثمانية، باعتباره الممول الفعلي للحياة الاجتماعية من خلال رسم النسيج الاجتماعي، وتمتين التكافل والتضامن بين أفراد المجتمع، وتوطيد العلاقة بين أهل القرية والمدينة.

أما اقتصاديا فقد ساهمت مداخيل وعائدات الأوقاف في صيانة الطرقات، وحفر الآبار، وبناء وتشييد بعض الجسور فقط، وترميم بعض الثكنات لأن الجانب الاقتصادي كان يخص الدولة لينحصر بذلك الوقف في جانبه الاقتصادي على الدور التقليدي فقط.

أما عن الجانب الثقافي والديني للأوقاف فإنها مصدر بناء العديد من المدارس والكتاتيب والزوايا والمساجد التي كثرت في الحواضر الجزائرية، ولقد انفردت كل مدينة بجوامعها كما سبق الذكر. صحيح أن الجزائر لم تكن بها جامعات أو مدارس عليا خلال الفترة العثمانية، إلا أن التعليم الذي كان يقدم في المرحلة الثانوية كان يضاهي نوعا ما دروس جامع الأزهر أو جامع الزيتونة، لأن الوظيفة الأساسية تكمن في التعليم والتفسير وغيرها.
وبالرغم من عدم اهتمام الدولة العثمانية بالجانب التعليمي والذي تركته لمجهودات الأفراد والأوقاف، إلا أنها لم تعمل على محاربته بل حافظت على مقومات الشخصية الإسلامية والموروث الثقافي رغم تراجع التعليم أواخر العهد.

وهذا ما يتنافى مع مبادئ السياسة الاستعمارية التي سعت منذ البداية إلى محاربة الدين الإسلامي، وإنشاء سياسة تعليمية فرنسية محكمة تتصدى من خلالها لكل ما له علاقة بالهوية الإسلامية، من خلال الاستعانة بالعديد من القرارات والمراسيم التي سيطرت من خلالها على الأوقاف، ووضعت بذلك المؤسسات الدينية في قبضتها.

ونتيجة لذلك قامت السلطات الاستعمارية بغلق المدارس العربية، وفتح أخرى فرنسية يكون التعليم فيها باللغة الفرنسية للتجهيل وفرنسة الأهالي، وتحطيم البعد الحضاري الإسلامي، ونشر الأفكار المغايرة تماما للمجتمع

الجزائري، وتتمكن بذلك من استئصال المجتمع من دينه وتاريخه ولغته وهويته وسلخه من عروبته كمحاولة منها لفرنسته، وتنصيره، ودمجه في المجتمع الفرنسي، ويسهل بذلك قيادته وإخضاعه للإدارة الفرنسية.

ولكي تتمكن الإدارة الفرنسية من تنفيذ خططها الهادفة إلى تهديم المجتمع الجزائري، ربطت الأوضاع ببعضها البعض، حيث عمدت إلى سن العديد من القوانين كقانون السيناتوس كونسولت الصادر في سنة 1863 وقانون وراني 1873 المكمل له، الذي زاد من معاناة الجزائريين، ولقد تزامنت هذه القوانين مع الجفاف، وسيطرت المجاعة، وانتشار أسراب الجراد بشكل كبير، وانتشار الأمراض والأوبئة.

وأمام تدهور الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للجزائريين عمدت الإدارة الاحتلالية إلى تطبيق سياستها التعليمية التنصيرية القائمة على فرنسة الجزائري بكل الطرق والوسائل.

وبالرغم من ذلك لم تتمكن الإدارة الاستعمارية من محو المقومات الإسلامية والحضارية للمجتمع الجزائري، لأن العديد من الطرق الصوفية تصدت للسياسة الاستعمارية وواصلت رسالتها التعليمية بالرغم من المضايقات الفرنسية العلنية القائمة على السجن، والنفي، وتشديد المراقبة على الزوايا.

ونتيجة لذلك رفض العديد من الجزائريين إرسال أبنائهم إلى المدارس الفرنسية كتعبير منهم للانتماء الإسلامي وإدراكهم لخطورة المناهج التعليمية الفرنسية الهادفة إلى تنصير أبنائهم.

ولقد أدرك الجزائريين خطورة الوضع أكثر بعد الوعي الذي نشرته الجمعيات التي نذكر على رأسها جمعية العلماء المسلمين، التي تصدت بأفكارها النهضوية والفكرية والدينية للعديد من المخططات الاستعمارية الهادفة إلى تدمير المجتمع الجزائري، ونادت بضرورة الحفاظ على مقومات الأمة الجزائرية ومحاربة البدع والخرافات التي دعمتها الإدارة الفرنسية لتجهيل الجزائريين.

وبالإضافة إلى الدور الذي لعبته الجمعية تأسست أيضا العديد من النوادي التي تسعى من خلال نشاطها إلى ضرورة التعليم باللغة العربية، حفاظا على الهوية الإسلامية والشخصية العربية.

9. خاتمة:

من خلال ما سبق نستنتج أن السياسة التعليمية العثمانية هدفت إلى نشر التعليم الديني بالرغم من بساطته محافظة بذلك على مقومات الهوية الجزائرية كالدين، والتاريخ، واللغة، والموروث الثقافي.

بينما المناهج التعليمية الفرنسية هدفت إلى تهديم البنية الاجتماعية والدينية والاقتصادية للمجتمع الجزائري من خلال محاربة التعليم، وغلق المساجد، والمدارس والكتاتيب، والزوايا والتقليص من نسبة المتعلمين

واستخدام من تم تعليمهم لأغراض استعمارية تهدف من خلالها إلى تثبيت دعائمها في الجزائر والقضاء على المجتمع المحلي بكل الوسائل والطرق.

10. الهوامش

(1)- أرزقي شويتام، المجتمع الجزائري وفعالياته 1519-1830، أطروحة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2005-2006، ص 333.

(2)- توفيق دحماني، الضرائب في الجزائر 1792-1865، كلية العلوم الانسانسة والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2007-2008، ص 138.

(3)- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ط 1، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص ص 246-247.

(4)- نفسه، ص ص 249-250.

(5)- مبروك مهريس، المساجد العثمانية بوهران ومعسكر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص ص 37-41.

(6)- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 246.

(7)- عبد الرحمن إبن أحمد التيجاني، الكتاتيب القرآنية بندرومة 1900-1977، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص 16.

(8)- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص ص 263-264-265.

(9)- نفسه، ص 272.

(10)- أحمد الراشدي، الثغر الجماني في إبتسام الثغر الوهراني، تح: المهدي البوعبدلي، د.د.ن، قسنطينة، 1973، ص 126.

(11)- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص ص 275-276.

(12)- أحمد بن شوش، المرجع السابق، ص 11.

(13)- أرزقي شويتام، المرجع السابق، ص 232.

(14)- عبد الحكيم رواحنة، السياسة الاقتصادية الفرنسية في الجزائر، ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة باتنة، 2013-2014، ص 21.

(15)- توفيق دحماني، المرجع السابق، ص 143.

(16)- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص ص 235-236.

(17)- نفسه، ص 317.

(18)- شاوش حباسي، من مظاهر الروح الصليبية للاستعمار الفرنسي بالجزائر 1830-1962، دار هومة، الجزائر، 1998، ص 12.

(19)- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج6، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ص 110.

(20)- خديجة بقطاش، الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر 1830-1870، منشورات دحلب، الجزائر، 2007، ص 64.

(21)- بن داهة عدة، الاستيطان والصراع حول ملكية الأرض ابان الاحتلال الفرنسي للجزائر 1830-1962، ج1، وزارة المجاهدين، الجزائر، 2008، ص 336.

(22)- الجيلالي صاري، الكارثة الديمغرافية 1867-1868، المؤسسة الوطنية للإتصال والنشر والاشهار، الجزائر، 2008، ص 225.

(23)- المهدي البوعبدلي، الاحتلال الفرنسي للجزائر ومقاومة الشعب في الميدان الروحي، مجلة الأصالة، العدد 08، 2011، ص 312.

(24)- كمال خليل، المدارس الشرعية الثلاث في الجزائر: التأسيس والتطور 1850-1951، ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة قسنطينة، 2007-2008، ص 19.

(25)- محمد الطاهر وعلي، التعليم التبشيري في الجزائر 1830-1904، منشورات دحلب، الجزائر، 2013، ص 111.

(26)- خديجة بقطاش، المرجع السابق، ص ص 60-61.

(27)- محمد الطاهر وعلي، المرجع السابق، ص 112.

(28)- كمال خليل، المرجع السابق، ص 40.

(29)- محمد الطاهر وعلي، المرجع السابق، ص 113.

(30)- خديجة بقطاش، المرجع السابق، ص 156.

(31)- محمد الطاهر وعلي، المرجع السابق، ص 116.

(32)- سعيدي مزيان، النشاط التنصيري للكاردينال وأساليب المواجهة الجزائرية له 1867-1892، دار سيدي الخير، الجزائر، ص 81.

(33)- جمال قنان، تعليم الأهالي في الجزائر في عهد الاستعمار 1830-1944، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007، ص 16.

(34)- أبو القسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج6، ص ص 438-440.

(35)- E. Fourmerstraux, l'instruction publique en Algérie, Challamel, Paris, 1880, p.4.

(36)- Zénaïde Tsourikoff, l'enseignements des filles en Afrique du Nord, A. Pedone, Paris, 1935, p.37.

(37)- M. P. Foncin, l'alliance française et l'enseignement de la langue nationale en Tunisie et en Algérie, cerf et fils, Pais, 1884, p.1.

(38)- appendice sous forme de journal (6 décembre 1867, jules le claire et Cie, Paris, 1867, p.203.

(39)- أبو القاسم سعد الله،(تاريخ الجزائر الثقافي)، المرجع السابق، ج6، ص 307-308.

(40)- نفسه، ص ص 309-310.

(41)- محمد الطاهر وعلي، المرجع السابق، ص ص 150-151.

11. قائمة المصادر والمراجع:

باللغة العربية:

1. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ط 1، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
2. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج6، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983.
3. أرزقي شويتام، المجتمع الجزائري وفعالياته 1519-1830، أطروحة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2005-2006.
4. توفيق دحماني، الضرائب في الجزائر 1792-1865، كلية العلوم الانسانسة والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2007-2008.
5. مبروك مهريس، المساجد العثمانية بوهران ومعسكر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
6. عبد الرحمن إبن أحمد التيجاني، الكتاتيب القرآنية بندرومة 1900-1977، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983.
7. أحمد الراشدي، الثغر الجماني في إبتسام الثغر الوهراني، تح: المهدي البوعبدلي، د.د.ن، قسنطينة، 1973.
8. عبد الحكيم رواحنة، السياسة الاقتصادية الفرنسية في الجزائر، ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة باتنة، 2013-2014.
9. شاوش حباسي، من مظاهر الروح الصليبية للاستعمار الفرنسي بالجزائر 1830-1962، دار هومة، الجزائر، 1998.
10. خديجة بقطاش، الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر 1830-1870، منشورات دحلب، الجزائر، 2007.
11. بن داهة عدة، الاستيطان والصراع حول ملكية الأرض ابان الاحتلال الفرنسي للجزائر 1830-1962، ج1، وزارة المجاهدين، الجزائر، 2008.
12. الجيلالي صاري، الكارثة الديمغرافية 1867-1868، المؤسسة الوطنية للإتصال والنشر والاشهار، الجزائر، 2008.
13. المهدي البوعبدلي، الاحتلال الفرنسي للجزائر ومقاومة الشعب في الميدان الروحي، مجلة الأصالة، العدد 08، 2011.
14. كمال خليل، المدارس الشرعية الثلاث في الجزائر: التأسيس والتطور 1850-1951، ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة قسنطينة، 2007-2008.
15. محمد الطاهر وعلي، التعليم التبشيري في الجزائر 1830-1904، منشورات دحلب، الجزائر، 2013.
16. سعيدي مزيان، النشاط التنصيري للكاردينال وأساليب المواجهة الجزائرية له 1867-1892، دار سيدي الخير، الجزائر.
17. جمال قنان، تعليم الأهالي في الجزائر في عهد الاستعمار 1830-1944، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007.

باللغة الأجنبية:

1. E. Fourmerstraux, l'instruction publique en Algérie, Challamel, Paris, 1880.
2. Zénaïde Tsourikoff, l'enseignements des filles en Afrique du Nord, A. Pedone, Paris, 1935.
3. M. P. Foncin, l'alliance française et l'enseignement de la langue nationale en Tunisie et en Algérie, cerf et fils, Pais, 1884.
4. appendice sous forme de journal (6 décembre 1867, jules le claire et Cie, Paris, 1867.